العرب في الاندلس

(٧١٠ ـ ١٤٩١ م . و ٩٢ ـ ٨٩٧ هـ)

« تبتدئ دولتهم بدخول طارق وهزيمة »
« لذريق . وتنتهي بسقوط غرناطة »
« وخروج ابي عبدالله منها »

فصول البحث واغراضه

لمحة تاريخية

الفتح . عهد الولاة . الدولة الاموية . ملوك الطوائف . دولة المرابطين . دولة الموحدين . دولة بني الاحمر . ميزة العصر .

الشعراء الاندلسيون

ميزة الشعر . المدح . الرثاء . الشكوى والاستعطاف . الهجاء . الحماسة والفخر . الحكم . الزهد . التصوف . الوصف : « وصف المعارك . الغزل . الخمريات . الصيد . الطبيعة والعمران » .

الموشحات الاندلسية

التعريف بالموشحات . اختراعها . اغراضها ومعانيها . لغتها . تأثيرها . منزلة الشاعر الاندلسي .

الكتاب الاندلسيون

ميزة النثر . الترسل . التصنيف والمصنفون . علوم اللغة . العلوم الدخيلة . الفلسفة والمنطق . السياسة والاجتماع . التاريخ والجغرافية . الفنون والصنائع . الادب والادباء .

obeikandl.com

لمحة تاريخية

الفتح

اسم الاندلس . حالة اسبانية قبل الفتح . لذريق وابناء غيطشه . يليان . كتابه الى موسى بن نصير . طريف . طارق . اولاد غيطشه يساعدون الفاتحين . حالة جيش المسلمين . حالة جيش الاسبانيين . انتصار المسلمين . احراق السفن . متابعة الفتح . مجيء موسى . الخليفة يطلبه وينقبه . مقتل عبد العزيز .

اطلق العرب اسم الاندلس على جميع البلدان الاسبانية التي فتحوها ، وكان لا يعرف به غير اقطاعة الفندال التي اجر منها جماعات الفنداليين في هجرتهم الى افريقية، فسميت باسمهم، وقيل لها قندلس . وهي اول ارض وطئها العرب من اسبانية، وعرفوا اسمها، فحرفوه، وقالوا اندلس .

وكانت اسبانيـة قبل الفتح العربي على اسوإ حالة في السياسة والاجتماع ، فان الضرائب الباهظة اشتفّت ثروة الطبقة الوسطى، وجماعة الموسرين على قلتهم استبدوا باراضيهم الخصبة على العبيد الفلاحين ، يستغلونها لترفهم وملذاتهم . والنصرانية مع انتشارها في اسبانية لم تبدل كثيراً من الشرائع الرومية القديمـة ، فظلت السيادة لاصحاب الاقطاعات ، والعبودية للفلاحين والضعفاء ، فقد دخل القوط هذه البلاد في القرن الخامس للميلاد واقاموا فيها مطمئنين، وازالوا سلطان الروم، وبنوا سلطانهم، وانتحلوا النصرانية ديناً، ولكنهم صاروا بها الى اضطهاد اليهود ، فاوسعوهم شراً، والى احتقار الروم لانهم مغلوبون .

فطبيعي ان تفضي هذه الحالة الى اختلال في بناء الدولة ، واكثر الشعب يمقتها ويتمنى زوالها، لعل بتغير الحكام تتغير الاحكام .

وكان على اسبانية ملك يقال له لُذُريق (Roderic) اغتصب العرش القوطي بعد وفاة الملك غِيطِشه (Witiza) وجعل العاصمة قُرطُبَة (Cordoue) بدلاً من طُلَيطِلَة (Tolède) لان اشياعه فيها . ولم يكن من سلالة الملوك ، وانما هو رجل نبيل ناصره الروم ورجال الدين لانه وقف لغيطشه يعارضه في ازدراء الروم ، وعبثه باوامر الكنيسة . فلما صار اليه الملك ، فزع اولاد غيطشه ألمَند ورُمله وأرطباش (Olemundo, Romulo et Ardabast) وأخوه أبّاس (Oppas) الى يُليان (Julien) صاحب سَبتَة (Ceuta) وكان عاملاً لقيصر الروم، ولكن بعده من القسطنطينية وقربه من البربر جعلاه يتودد الى غيطشه ملك القوط لانه مسيحي مثله، ويبدي له خضوعه، فصادقه غيطشه وصاهره فلما استنجده ابناؤه واخوه رحب بهم ، ووعدهم خيراً . ورُوي ان يليان اشتد كرهه للذريق ، ونقمته عليه بعد ان انتهك عرض ابنته ، وذلك انه جرت عادة الاشراف في اسبانية ان يبعثوا اولادهم الى بلاط الملك الاكبر بطليطلة ليصيروا في خدمته ، ويتأدبوا بادبه ، وينالوا من كرامته ، حتى اذا بلغوا ازوج بعضهم بعضاً استئلافاً لآبائهم . وكان ليُليان ابنة بارعة الجمال اسمها فلورندا كافا ، فبعثها الى بلاط لذريق ، فوقعت من قلبه موقعاً حسناً ، ولم يرع لها حرمة ، فاعلمت والدها فاسترجعها ساخطاً . فغير عجيب ان يسعى لاسقاط لذريق وثل عرشه .

وكانت سبتة همزة الوصل بين المغرب والاندلس ، فكتب يليان الى موسى بن نُصَير عامل الوليد بن عبد الملك في المغرب يزين له غزو الاندلس ، ويصف خصب ارضها ، وفرة اموالها ، وسهولة التغلب عليها لتخاذل اهلها ، وانقسام بعضهم على بعض، ووعده بالمساعدة . فاستأذن موسى الخليفة بغزو الاندلس فاذن له على ان يخوضها اول الامر بالسرايا ، ولا يغرر بالمسلمين في بحر شديد الاهوال، فبعث موسى مولى له من البرابرة يقال له طَريف بن مالك النَخَعي ، في اربع مائة راجل، ومائة فارس فحملتهم اربع سفن ليليان الى جزيرة الفندال التي اشتق منها اسم الاندلس ،

فسميت جزيرة طريف (Tarifa) لنزوله بها . واقاموا فيها يوماً ثم كروا الى المغرب وقد أصابوا مالاً جسيماً ، وسبياً لم ير موسى واصحابه مثله حسناً .

وعاد يليان يحرض موسى على اقتحام الاندلس حتى اغراه ، فدعا ببربري من مواليه اسمه طارق بن زياد ، فعقد له ، وبعثه في سبعة الاف من البربر ، ليس فيهم الا ثلثمائة من العرب ، فاقلتهم سفن يليان التجارية لخمس خلون من رجب سنة ٩٢ هـ . فسارت بهم تعبر بحر الزقاق من طنجة الى سبتة الى جزيرة الفندال ، ويسميها العرب الجزيرة الخضراء . وكان نزولهم عند جبل كلبه (Calpé) فقيل له جبل الفتح او جبل طارق ، وسمي بحر الزقاق مضيق جبل طارق .

وكان اول من قاوم العرب تُدمير (Theudimer) صاحب الجزيرة الخضراء ولكنه لم يصبر طويلاً بل انهزم الى إشبيلية (Séville) وبعث الى عاهله لذريق يخبره بغارة العرب ، وخيانة يليان . فحشد لذريق الجيوش ، وكتب الى اولاد غيطشه ، يدعوهم الى الاجتماع معه على حرب العرب ، ويحذرهم من القعود عنه ، فلم يجدوا بداً من اجابته ، فحشدوا ، وقدموا عليه ، ومضوا معه وهم مرصدون لمكروهه . وكانوا يظنون ان العرب لا حاجة بهم إلى استيطان بلدهم ، وانما مرادهم ان يملأوا ايديهم من الغنائم ، ثم يخرجوا عنهم ، فاجمعوا على الانهزام امامهم لكي يمكنوهم من لذريق فيتخلصوا منه .

وكان لذريق ولّى ميمنته احد اولاد غيطشه ، وميسرته الاخر ، فلما تقابل الجيشان ارسل ابناء غيطشه الى طارق يعلمونه ان لذريق كان تابعاً وخادماً لابيهم ، فغلبهم على سلطانه بعد مهلكه ، وانهم غير تاركين حقهم لديه ، ويسألونه الامان ، على ان يمالوا اليه عند اللقاء فيمن يتبعهم ، وان يسلم اليهم اذا ظفر ، ضياع والدهم بالاندلس . فاجابهم الى ذلك ، وعاقدهم عليه ، فالتقى الفريقان في الغد على وادي بكّة (Wadi-Bekka) [1] وكان جيش طارق قد جاءه امداد من المغرب فبلغ اثني عشر الفاً ، سلاحهم حسن ، وقلوبهم متحدة على الغزو واقتسام الغنائم . فتقدم فيهم ومعهم يليان في حشده ، يدلهم على العورات ، ويتجسس لهم الاخبار . وتقدم لذريق

---

(١) هكذا ضبطها كليمان هيوار في كتابه تاريخ العرب ، وهي في نفح الطيب لكّة ولعلها محرفة بالنسخ ، وتعرف بالاسبانية : (Rio Salado) .

في جيشه وهو على رواية ابن خلدون اربعون الفاً ، وعلى رواية المقَّري مائة الف . ويقول كليمان هيوار : « ان جيش الاسبانيين كاد يكون خلواً من الفرسان ، وان اغلب سلاحه العصي والمقاليع . » اه . زد على ذلك حالته المعنوية فمن قواد كاولاد غيطشه ، يريدون الغدر بلذريق ، الى قلوب في الجند غير متحدة لما بين القوط واليهود والروم من النفور والانقسام .

وغير عجيب ان يعتمد لذريق على اولاد غيطشه اذ لم يخطر له في بال ان ملوكاً مثلهم يعالئون العرب على امتلاك ارضهم ؛ وجعلهم على رأس الجيش لما لهم من المنزلة في نفوس القوط .

على ان اولاد غيطشه وصاحب سبتة لم يظاهروا العرب في غارتهم على الاندلس ، الا لاعتقادهم انهم قوم غزاة لا يلبثون بعد الغنيمة ان يعودوا الى بلادهم ، فشدوا ازرهم للتخلص من لذريق . والعرب انفسهم لم يكن وكدهم البقاء في اسبانية عندما اقتحموها ، يدل على ذلك حديث رواه المقَّري لميمون العابد ، وكان في عداد الشاميين الذين دخلوا الاندلس ، فقد قال لارطباش بن غيطشه : « انا قدمنا الى هذا البلد غزاة نحسب ان مقامنا فيه لا يطول ، فلم نستعد للمقام ولا اكثرنا من العدة . »

واستمرت المعارك بين المسلمين والاسبانيين مدة ثمانية ايام فرجحت كفة طارق ، وشالت كفة لذريق ، فانهزم من المعمعة وحاول ان يعبر النهر بعدته وجواده فلم يبن له اثر . وتم النصر للمسلمين في رمضان سنة ٩٢ هـ . وكانت خسارتهم نحو ثلاثة الاف رجل ، واما الاسبانيون فكانت خسارتهم اضعاف ذلك .

ورافق خبر الفتح اسطورة مفادها ان طارقاً لما وطئ ارض الاندلس امر بالسفن فاحرقت ، وخطب في جيشه خطبته الشهيرة التي يقول فيها : « ايها الناس ! اين المفر ؟ والبحر من ورائكم ، والعدو امامكم ، وليس لكم والله الا الصدق والصبر . » فان صحت هذه الخطبة لطارق ، فليس فيها ما يشير الى احراق السفن . ثم ان السفن كانت للكُنت يليان ، تسير بامرته ، فانى لطارق ان يتصرف فيها ويأمر بحرقها . هذا وان اخبار الفتح تنبئ بان السفن كانت تختلف بين افريقية والاندلس حاملة الامداد والذخائر للفاتحين وفي ذلك ما ينفي رواية احراقها . وليس في نفح الطيب ما يثبت

هذه الرواية مع عناية صاحبه بتدوين اخبار الفتح على علاتها . وغير معقول ان يغمر طارق بجيشه في ارض غريبة ، ويقطع الصلة بينه وبين بلاده ، فما هكذا تكون حكمة القواد وخبرتهم في الحروب .

وبلغ موسى بن نُصَير فتح الاندلس، فحسد طارقاً، وتقدم اليه بان يتوقف عن الايغال في البلاد حتى يأتي اليه . فلم يطعه طارق بل تابع الفتح ، وقسم جيشه اربعة اقسام ، وأرسل بعثاً الى قرطبة ، وجعل مقدمه مغيثاً الرومي مولى الوليد بن عبد الملك . وارسل بعثاً ثانياً الى مالَقَة (Malaga) وبعثاً ثالثاً الى غَرناطة (Grenade) مدينة إلبيرَة (Elvira) وسار هو في معظم الناس الى كورة جَيَّان (Jaën) يريد طليطلة .

فسار مغيث الى قرطبة، وكان لها سور عال، فلما اجنَّهم الليل اقبلوا نحوها، وقد جادت السماء برذاذ اخفى دقدقة حوافر الخيل ، فعبروا نهر قرطبة ، وتسلق بعضهم وهجموا على الاحراس وهم غافلون ، وفتكوا بهم، وكسروا اقفال الباب وبيَّتوا المدينة ، فهرب ملكها واربع مائة من اصحابه الى كنيسة ، وتحصنوا فيها، فدعاهم مغيث الى الجزية او الاسلام فأبوا ، فاوقد النار عليهم حتى احرقهم ، فسميت كنيسة الحرق ونجا ملكهم فاخذ اسيراً .

وجمع مغيث يهود قرطبة، فعهد اليهم بحراسة المدينة استئمانة لهم دون النصارى وجعل معهم طائفة من المسلمين ، ثم سار بجيشه قاصداً طليطلة لينضم الى طارق ابن زياد .

واما البعث الذي زحف الى مالقة فقد وفق لافتتاحها ، ولجأ اهلها الى جبال هنالك وامتنعوا فيها . ثم لحق ذلك الجيش بالجيش المتوجه الى البيرة فحاصروا غرناطة، وفتحوها عنوة، وضموا يهودها للمحافظة عليها مع جماعة من المسلمين . ثم مضى الجيش الى أُرِيُولة (Orihuela) من اعمال مُرْسِيَة (Murcie) وكان تدمير قد لجأ اليها بعد موت عاهله ، فنودي به ملكاً على القوط، واقام بمرسية ويسميها العرب تُدمير باسمه . وكان داهية شديد البأس ، فقاتل المسلمين حتى فني اكثر جيشه، ولم يبق الا اقله، فامر النساء بنشر الشعور، وحمل القصب والظهور على السور في زي القتال .

وتصدر قدامهن في بقيـة اصحابه يغالط المسلمين في قوته، فكره المسلمون مراسه لكثرة ما عاينوه على السور ، وعرضوا عليه الصلح فرضي ، ونكّر زيه ، ونزل اليهم بامان على انه رسول، فصالحهم على اهل بلده ، ثم على نفسه ، وتوثق منهم، ثم اظهر لهم نفسه ، واعتذر اليهم . وسلمت كورة تُدمير من اذية المسلمين بتدبيره، وصارت كلها صلحاً ليس فيها عنوة . وترك المسلمون فيها رجالاً ومضى معظمهم الى طارق لفتح طليطلة .

وانتهى طارق الى طليطلة دار مملكة القوط فالفاها خالية قد فر اهلها عنها الى الجبال، فضم يهودها اليها، وخلف بها رجالاً من اصحابه، وراح يطارد الفارين .

وعرف موسى بن نصير ما فعل طارق ، وما تسنى له من الفتوح، فحشد ثمانيـة عشر الفاً من البربر والعرب ، وعبر بهم بحر الزقاق ، فدخل الاندلس في شهر رمضان سنة ٩٣ هـ (٧١١م) فسار به اصحاب يليان فافتتح إشبيلية وسار الى ماردَة (Mérida) في غربي اسبانية ، وكان اهلها ذوي بأس ونجدة فدافعوا عنها ، ونالوا من المسلمين دفعات وآذوهم ، ولم تسقط الا بعد ان توالت النجدات الى موسى بن نصير ، وكان فتحُها صلحاً لا عنوة .

وذهب موسى الى طليطلة ، فاستقبله طارق ، ونزل اليه إعظاماً ، فقنعه موسى بالسوط ، ووبخه على عصيانه له ومخالفته لرأيه ، وطالبه بمال الني . وذخائر الملوك، فقدمها له وفي جملتها المائدة التي غنمها من كنيسة طليطلة، وكان يوضع عليها الانجيل . ويقول المؤرخون انها مصنوعة من الذهب الخالص ، مرصعة بفاخر الدر والياقوت ، وكان طارق قد خلع رجلًا من ارجلها وخبأها عنده ، فسأله موسى عنها فقال : « لا علم لي بها ، وهكذا أصبتها . » فامر موسى فجعلت لها رجل من ذهب جاءت بعيدة الشبه عن سائر ارجلها ، فأخلّ بها .

ثم ان موسى اصطلح مع طارق، واظهر الرضا عنه ، واقره على مقدمته وتابع واياه الفتح متوغلين في بلاد الفرنجة . وفيما هما يسيران من بلد الى بلد اذا بأمر من الوليد بن عبد الملك يدعو موسى اليه، وقد بلغه ما اصاب من الاموال والغنائم . فولى موسى ابنه عبد العزيز على الاندلس، وجعل مقره في اشبيلية ثم ركب في البحر ومعه

طارق ومغيث. وكان مع مغيث في الاسر صاحب قرطبة يريد تقديمه للخليفة ؛ فسأله موسى ان يسلمه اليه فامتنع، وكان يدل بولائه من الوليد ، فانتزعه موسى قسراً . فقيل له : « ان سرت بـه حياً معك ادعاه مغيث ، والعلج لا ينكر قوله ، ولكن اضرب عنقه . » ففعل، فحقدها عليه مغيث. وسار موسى فورد الشام وقد مات الوليد واستخلف سليمان اخوه ، وكان منحرفاً عليه . فسبق اليه طارق ومغيث بالشكية منه ، ورمياه بالخيانة ، واخبراه خبر صاحب قرطبة والمائدة . فلما مثل في حضرته ، وبجه واغلظ له ، وسأله عن المائدة فاحضرها، فقال : « زعم طارق انه الذي اصابها دونك . » قال: « لا، وما رآها قط الا عندي . » فقال طارق: « فليسأله امير المؤمنين عن الرجل التي تنقصها . » فسأله، فقال : « هكذا اصبتها ، وعوضتها رجلاً صنعتها لها . » فاخرج طارق الرجل المخلوعة من قبائـه ، فعلم سليمان كذب موسى فعزله واقصاه ، واغرمه غرماً عظيماً، حتى اضطر الى ان يسأل الناس معونته .

وقيل بل ورد موسى الشام والوليد مريض، فكتب سليمان اليه يأمره بالتربص رجاء ان يموت الوليد، فيقدم عليه موسى بتلك الغنائم في اول خلافته، فيعظم بذلك مقامه عند الناس . فابى موسى وجدَّ في السير حتى دخل دمشق، والوليد حي، فقدم له الغنائم والتحف ثم مات الوليد واستخلف سليمان فانتقم من موسى ، واغرمه ونفاه الى وادي القرى، ودس الى الاندلس بقتل ابنه عبد العزيز .

وكان عبد العزيز قد تولى الامر بعد ابيه، فاحسن سياسة البلاد ، وعقد معاهدة صلح مع تدمير ملك القوط اعترف فيها تدمير بانه من عمال الخليفة ، ورضي بدفع الجزية ، واعترف له عبد العزيز بملكه على بَلَنسية وأريولة وسواهما، وعاهده على ان لا يعتدي المسلمون على رعيته، ولا يسبوا نساءهم، ولا يعارضوهم في دينهم . واخذ عبد العزيز يجبي الضرائب ، ويرسلها الى دمشق، ولكن سليمان كان كارهاً له ، ناقماً على ابيه ، فدس عليه من اثار به الجند فقتلوه سنة ٩٨ هـ. (٧١٦ م) وهو في جامع اشبيلية، واتهموه بانه جعل باب مجلسه صغيراً لينحني له الناس ساجدين اذا دخلوا عليه، وقد فعل هذا ارضاء لزوجه الاسبانية ارملة لذريق، فانها طلبت منه ان يسجد لـه الناس، كما كانوا يسجدون لبعلها الاول فلم يطق رد طلبها لشدة شغفه بها .

عهد الولاة (٧١٠ ـ ٧٥٥ م و٩٢ ـ ١٣٨ هـ)

الولاة تعينهم افريقية او الخليفة . افتتاح بلاد جديدة . معركة إبواتيه . العدنانية واليمانية . الفتنة . ثورة البرابرة . الولاة اليمانيون يتعصبون . اقتسام الامارة . استبداد المغاربة بالحكم .

بدأ عهد الولاة في الاندلس بطارق، ثم بموسى، ثم بعبد العزيز . فلما قتل هذا بقيت الاندلس نحو ستة اشهر وبنو امية لا يرسلون والياً اليها . فاجتمع زعماء البربر واختاروا ايوب بن حبيب اللَّخمي، وهو ابن اخت موسى بن نصير . فجعل سريره في قرطبة . ولم يطل عهده لان محمد بن يزيد عامل افريقية من قبل سليمان بن عبد الملك عزله، وولى مكانه الحرّ بن عبد الرحمن الثَّقفي .

وتعاقب الولاة على الاندلس ، فمنهم من كان يعينهم الخليفة ، ومنهم من كان يعينهم عامل افريقية . وافتتحت بلاد جديدة كبَرْشلونة (Barcelone) وقَشْتالة (Castille) واغار العرب على شواطئ الرون فبلغوا ليون . وما زالوا يتقدمون في قلب فرنسة حتى كادوا يحصرون تور لو لم يلقهم شَرْل مَرْتِل بجموع الفرنجة في سهول إبْواتِيَه ، ويردهم على اعقابهم . وقتل في تلك الواقعة قائدهم عبد الرحمن الغافقي والي الاندلس وذلك سنة ١١٤ هـ . (٧٣٢ م) .

ولم يقتصر عهد الولاة على الحروب بين المسلمين والنصارى في اوربة بل حدث شقاق عظيم في المسلمين انفسهم، وقامت الفتنة ، واعصوصب الشر بين الاحزاب، ذلك انه لما تسامع العرب بفتح الاندلس، وذكر لهم ما فيها من خصب وغنى اقبلوا اليها ، وفي طليعتهم الشاميون، واستوطنوها وكان فيهم العدنانية من مضر وربيعة كابناء قريش من فِهْر وامية وهاشم ومخزوم ، وكابناء غَطَفان وتميم وكنانة وقيس عيلان وتغلب وبكر واسد . وفيهم اليمانية من كَهْلان والأَزْد ومَذْحِج وسواهم وكانوا اكثر عدداً من العدنانيين، فانتقلت معهم العصبية القَبَلية، والمنازعات الحزبية

بين القحطانية والعدنانية او القيسية واليمانية .

وكان البربر يعتدّون بانفسهم ، لان الفاتح منهم ، والفتح تم على يدهم ، ويرون انهم اولى من غيرهم بالاحكام . فحدث ان ثار البرابرة في المغرب على الشاميين والمصريين ، واتخذوا فيهم ، فتحرك برابرة الاندلس ، وثاروا بواليها عبد الملك بن قَطَن ، فاستنجد بَلجَ بن بِشر القُشَيري ، وكان في سبتة ، ومعه عشرون الف محارب فجاء واخمد الثورة . الا ان عبد الملك لم يحسن جزاءه ، فاغتاظ بلج وقتله ، وولي الامر مكانه . فسخط العرب على بلج لفتكه بعامل الخليفة ، وثاروا عليه ، فقتلوه .

وولي بعده ثعلبة بن سَلامة الجُذامي فتجهم الفهريون ومالوا عنه لتعصبه لليمانية ، فهبت الفتنة بين العدنانية والقحطانية ، وتفاقم الامر . وكان على افريقية حَنْظلة بن صَفْوان فعزل ثعلبة ، وارسل ابا الخطّار حسام بن ضِرار الكلبي . وكان ايضاً يمانياً فافرط في العصبية على العدنانية واسخط القيسية باساءته الى كبيرها الصُمَيل بن حاتم فهاجت الحرب ، وخلع ابو الخطار .

وكان الامويون في الشرق قد تضعضعت احوالهم بنشاط الدعوة العباسية ، فعجزوا عن ضبط الولايات القاصية ، فباتت الاندلس فوضى ، لا راع لها ، يتصرف فيها الجند بحسب اهوائهم . فاتفقوا على اقتسام الامارة بين المضرية واليمانية ، يتداولونها سنة فسنة . فقدم المضرية عليهم يوسف بن عبد الرحمن الفهري سنة ١٢٩هـ . (٧٤٦م) واستتم سنة ولايته بقرطبة . ثم جاءته اليمانية ليعاد دولتهم ، فبيّتهم يوسف في شَقَنْدة من قرى قرطبة ، وبالغ في تقتيلهم وعاونه عليهم الصُمَيل وسائر المضرية ؛ فغلبوا على امرهم واستكانوا ليوسف الفهري على مضض . ثم اصاب الاندلس قحط عظيم ، واشتد عليها الجوع مدة ثلاث سنوات ، فرجع اكثر البربر الى افريقية ، وظل الحكم بيد يوسف الى ان جاء عبد الرحمن الداخل ، وانشأ الدولة الاموية الجديدة .

الدولة الاموية (٧٥٥ ـ ١٠٣٠ م و ١٣٨ ـ ٤٢٢ هـ)

هرب عبد الرحمن الى الاندلس . قطع الخطبة عن بني العباس .
عبد الرحمن الثالث والخلافة . الحكم . هشام . الحاجب
المنصور . انقراض الامويين .

ما انهار البيت الاموي في الشرق الا لترتفع له الدعائم في الغرب، فكأن الاقدار ابت الا ان يظلل برواقيه حضارة المسلمين ، وعز الاسلام في الخافقين . فقد اديل لبني العباس بعد مهلك مروان بن محمد ، فاعملوا السيف في رقاب الامويين ، فقتلوا منهم خلقاً كثيراً ، ونجا من تراخت منيته . وكان في جملة الناجين عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان ، فانه فر مستخفياً حتى خلص الى المغرب . وكانت امه بربرية فنزل على اخواله بني نَفزة بالقرب من سبتة ، فاحسنوا ضيافته ثم لحق به مولاه بدر، فبعثه بكتاب الى موالي المروانية في الاندلس، وهم يوم ذاك ما بين اربع مائة وخمس مائة، ولهم جمرة . فسهلوا له دخول البلاد، ووطأوا له عرش قرطبة .

وقد تواطأت عدة اسباب لنجاح ابن معاوية، منها حماية البربر له لانهم اخواله ، ومنها اجتماع موالي المروانية اليه لانه مرواني ، ومنها ضعف الدعوة العباسية في الاندلس، لان المضرية كانت في كثرتها شامية اموية، فانثالت اليه من كل جانب وعجز الصميل والقيسية عن ردها . اما اليمانية فانها كانت تتمنى زوال سلطان الصميل ويوسف الفهري، فتسايلت الى عبد الرحمن تشد ازره، وقديماً كانت اليمانية انصار امية على قيس عيلان .

وما زال الاموي يحتل بلداً بعد بلد حتى دخل قرطبة ، فجعل فيها سريره . وانتصر على الصميل ويوسف الفهري واهلكهما، ودانت له الاندلس كلها ، فاصبح اميرها، ولقب بالداخل، لدخوله اياها ولقبه ابو جعفر المنصور بصقر قريش . وكانت الخطبة تقام لبني العباس فقطعها عنهم ، ودعي له على المنابر ، وبنى المسجد الجامع في

قرطبة، واختط مدينة الرُصافة في شماليها على مثال رصافة الشام لجده هشام؛ وجعل بلاطه كبلاط لذريق في عظمته وبهائه . وكانت مدة ملكه اربعاً وثلثين سنة من سنة ١٣٨ ـ ١٧٢ هـ . (٧٥٥ ـ ٧٨٨ م) .

وتداول الملك بعده ابناؤه وحفداؤه حتى وليه عبد الرحمن الثالث ، فقام باعبائه خمسين حولاً من سنة ٣٠٠ الى سنة ٣٥٠ هـ . (٩١٢ ـ ٩٦١ م) وبه بلغت دولة بني مروان اوج مجدها . وكانت له الغزوات المظفرة في الشمال والجنوب ، فخضعت له بلاد كثيرة من اسبانية والمغرب ، وجاءته الهدايا من ملوكها . وجعل الاندلس امة واحدة تحت سلطانه واستكثر من الصقالبة[1]، واعتمد عليهم في الجيش وخطط الدولة ، فازال بهم زعامة الارستقراطية العربية .

وكان امراء بني امية يطمعون في استرجاع الخلافة ، ويتحينون لها الفرص ولم يتلقبوا اول امرهم بالقابها مخافة ان يجد المسلمون في عملهم بدعة لان الخلافة العباسية كانت في ابان عظمتها ، فلا مسوّغ لقيام خلافة اخرى .

فلما صار امرها الى الضعف وباتت شؤونها في يد الاتراك والخدم يولّون الخلفاء ويخلعونهم او يقتلونهم ، سنحت الفرصة لملوك الاندلس ، فاغتنمها عبد الرحمن الثالث وهو الرجل المقدامة الحزيم ، وسمي امير المؤمنين الناصر لدين الله سنة ٣١٦ هـ (٩٢٨ م) .

ومات عبد الرحمن وله من العمر سبعون سنة؛ وفي ايامه نهضت الاداب والعلوم نهضة ميمونة ، وازدهرت العمارة ، وكثر عدد السكان في قرطبة وبنيت بها القصور المنيفة ، واستكثر من الجوامع والحمامات فبلغت ثلاثة الاف جامع وثلثمائة حمام . فاصبحت قرطبة تنافس بغداد في حضارتها ، فاذا هي منارة الغرب الوضاءة ، كما كانت تلك منارة الشرق . وبنى الناصر على مقربة منها مدينة اسماها الزهراء باسم جارية له ، واجرى فيها المياه ، وانشأ القصور والبساتين مما يجل عن الوصف . وبلغت

(١) الصقالبة : كان يراد بهم اولاً احداث السلاف الذين يسبون ويباعون في اسواق الاندلس ، ثم اريد بهم صبيان الفرنجة على الاطلاق . وهؤلاء الاحداث اسلموا وتعلموا العربية ، فهم اشبه بالموالي في الشرق ، وكان عددهم يراوح بين اربعة آلاف الى ثلاثة عشر الفاً

جباية الضرائب في ايامه ٦،٢٤٥،٠٠٠ دينار . وكان له اسطول عظيم يزاحم بـه اسطول الفاطميين .

وانتقلت الخلافة من بعده الى ولده الحكَم المستنصر بالله ؛ فكان كابيه حازماً حسن التدبير، فاخضع الثائرين من النافاريين والقشتاليين ؛ واستخذى له ملـك الجلالقة[١] وملك خمس عشرة سنة[٢] كلها يمن واقبال ؛ وبلغت قرطبة غاية عظمتها حتى حق لها ان تسمى دار العلوم. وامتاز عهده بانشاء المدارس والمكاتب فقد ابتنى في قرطبة سبعاً وعشرين مدرسة، وجعلها مجاناً للطلاب؛ واتم بناء الجامع الكبير اعظم مسجد في العالم، وفيـه كانت تدرس الاداب والعلوم العالية . قال في وصفه كليمان هيوار: « هو غابة من المرمر يشتمل على ستين سارية وثماني مائة ، واثر عجيب للفن الاسلامي .» اهـ. وارسل البعثات العلمية الى الشرق فكانت تنسخ له الكتب وتأتي بها اليه حتى جمع في خزائنه اربع مائة الف كتاب. ويقول دوزي في كتابه تاريخ مسلمي اسبانية : « ان اسبانية المسلمة كادت كلها تقرأ وتكتب ، على حين ان الطبقة الرفيعة في اوربة المسيحية لم تكن كذلك، اذا استثنينا رجال الدين . »

وكانت خلافة الحكم نهاية عهد القوة في دولـة الامويين ، فان هشاماً كان حدثاً لما ولي الامر بعد ابيه، فاستبد بشؤون الدولة وزيره محمد بن ابي عامر، وعضدته صبح ام الخليفة الصغير، لانهـا كانت تهواه . فحجر على هشام ، ومحا رسم الخلافة وكتب اسمه في السكة والطراز[٣] وتلقب بالحاجب[٤] المنصور، ودعي له على المنابر، ولم يترك للخليفة غير الدعاء ليلة الجمعة . وكان شديد البطش، كثير الغزوات موفقها، اغار على الفرنجة مرات عديدة، واثخن فيهم، وهـدم مدنهم امثال لاون (Leon) وبرشلونة . ومات سنة ٣٩٣ هـ . (١٠٠٢ م) .

وكان محباً للفلسفة، فرمي بالزندقة ، فاراد تبرئـة نفسه، فامر بكتب المنطق والنجوم فاخرجت من خزائن الحكَم واحرقت ، ولكنه قرب العلماء والشعراء ،

---

(١) الجلالقة جمع جِلّيقيّ : نسبة الى جِلّيقِيَة (Galice) وهي ولاية من اسبانيـة .
(٢) مدة خلافته من سنة ٣٥٠ـ٣٦٦ هـ. (٩٦١ ـ ٩٧٦ م) . (٣) الطراز : ثوب ينسج للسلطان . (٤) الحاجب : برتبة الوزير الاول في الاندلس والمغرب .

واحسن صلاتهم فنطقوا بحمده ، واشادوا بذكره .

وتولى الامر بعده ابنه عبد الملك وتلقب بالملك المظفر، ومات بعد ان حكم سبع سنوات، فخلفه اخوه عبد الرحمن وتلقب بالناصر لدين الله، وجرى على سنن ابيه واخيه في الحجر على الخليفة هشام ، والاستقلال بالملك دونه . ثم طمعت نفسه في الخلافة، فطلب من هشام ان يوليه عهده ففعل . فنقم الامويون والقرشيون وخلعوا هشاماً، وبايعوا محمد بن هشام من حفدة عبد الرحمن الثالث وتلقب بالمهدي . وكان الناصر غائباً في غزوة، فلما بلغه الخبر قفل الى قرطبة ، فارسل اليه المهدي من قبض عليه، واحتز رأسه، وذهبت بموته الدولة العامرية .

غير ان محمد بن هشام لم يستقر ملكه على حال لانه جافى البرابرة لميلهم الى العامريين ، فأتمروا به وبايعوا سليمان بن الحكم ، وتسمى بالمستعين فقامت الفتنة بين الاميرين فمرة كان ينتصر المهدي ويهزم المستعين . ومرة كان ينتصر المستعين فيستجيش المهدي ملك الاسبانيين، فيمده ويعيده الى عرشه . وانتهبت العاصمة مراراً وخرب اجمل قصورها في المعارك المتتابعة ، واصيبت مثلها المدن والقرى في جوارها ، ثم تم الامر للمستعين، فتغلب البربر على الاحكام، وارتفع شأنهم .

وكان علي بن حَمُود الإدريسي قد جاء الاندلس من المغرب فدعا البربر الى مبايعته ، فاجابوه لما للادارسة من الكرامة عندهم، فقتل المستعين وتلقب بالناصر . ثم رجع الملك الى امية لان اهل قرطبة ثاروا بقاسم بن حمود ، وردوا الملك على الامويين . ثم عاد الملك الى بني حمود ، ثم الى بني امية ، وكان آخر خليفة منهم المعتضد بالله هشام بن محمد فملك مدة يسيرة ثم خلعه الجند فهرب وانقطعت به الدولة الاموية، وصار الامر في قرطبة الى الطبقة الارستقراطية . واما الولايات فان رؤساء الطوائف فيها من بربر وعرب وموالٍ اقتسموا خططها، واستبدوا بامرها ، فعرفوا بملوك الطوائف .

ملوك الطوائف (١٠١٢ـ١١٤١ م و ٤٠٣ـ٥٣٦ هـ)

الزيرية . الحمودية . الهودية . العامرية . العبادية . بنو الافطس . الجهورية . النونية . تجارهم . استبدادهم . ملوك الفرنجة . حالة الاداب والعلوم .

بدأ استقلال ملوك الطوائف في عهد الامويين بعد ان ضعف سلطانهم ، واستبد العامريون عليهم . فان الدولة الزيرية استقلت في غرناطة سنة ٤٠٣ هـ . في خلافة المرتضى ، وهي دولة بربرية تنتسب الى رأسها زاوي بن زيري ، وظل ملكها الى سنة ٤٨٣ هـ . (١٠٩٠ م)

وكذلك الدولة الحمودية استقلت في عهد المستعين الاموي سنة ٤٠٧ هـ . (١٠١٦ م) . وتلقبت بالقاب الخلافة ، وهي شيعية من المغرب تنتسب الى ادريس من سلالة الحسن بن علي . وكان سريرها يتنقل من قرطبة الى مالقة الى الجزيرة الخضراء . وانقرض ملكهم سنة ٤٥٠ هـ . (١٠٥٨ م) .

واشتهر من ممالك الطوائف الدولة الهُودِيَّة في سَرَقُسْطة (Saragosse) من ٤١٠ـ٥٣٦ هـ . (١٠١٩ـ١١٤١ م) وهي دولة عربية اشهر ملوكها المقتدر بالله وابنه المؤتَمن . وكان المؤتمن بارعاً في العلوم الرياضية وله فيها تآليف حسان .

والدولة العامرية في بَلَنْسِيَة (Valence) من ٤١٢ـ٤٧٨ هـ . (١٠٢١ـ١٠٨٥ م) وهم من موالي بني عامر .

والدولة العَبَّادية في إشبيلية من ٤١٤ـ٤٨٤ هـ . (١٠٢٣ـ١٠٩١ م) وهي عربية من بني لَخم من ولد النعمان بن المنذر .

ودولة بني الافطس في بَطَلْيُوس[1] (Badajoz) من سنة ٤٢١ـ٤٨٧ هـ . (١٠٣٠ـ١٠٩٤ م) وكانت دولة متحضرة نهضت بالعلوم والفنون ، مع انها بربرية من

(١) هكذا ضبطها ياقوت ، وضبطها ابن خلكان بفتح الياء قبل الواو الساكنة .

مكناسة، ولكنها نشأت في الاندلس وتخلقت باخلاق اهلها .

والدولة الجَهْوَرية في قرطبة من سنة ٤٢٢ـ٤٦١ هـ. (١٠٣٠ـ١٠٦٨ م) قامت بعد ان زالت خلافة المعتضد وسقطت الدولة الاموية، وصار الامر بقرطبة الى الجماعة الارستقراطيين وكان عميد هذه الجماعة ابو الحَزْم جَهْوَر ، فاستولى على الاحكام، واستقل بالملك، فتوارثه ابناؤه من بعده .

ودولة ذي النون في طليطلة من٤٢٧ـ ٤٧٨هـ. (١٠٣٥ـ١٠٨٥م) وهي بربرية من قبائل هَوّارة .

وكان ملوك الطوائف يحارب بعضهم بعضاً، ويتغلب قويهم على الضعيف فيزيل ملكه كما ازال العباديون ملك الجهورية، والذونيون ملك العامرية . وربما استنجد بعضهم على بعض ملوك الفرنجة، فيغتنم هؤلاء الفرصة، ويهاجمون الاندلس، ويستولون على عواصمها، ويخضعون ملوكها، ويضربون عليهم الجزية ، ويجعلونهم عمالاً لهم ؛ فعل فرديناند الاول بالمظفّر ملك بطليوس ، وبالمأمون ملك طليطلة ؛ وفعل ألفنس السادس بملك سرقسطة .

وظلت الاندلس في اضطراب دائم لا تستقر على حال حتى افتتحها يوسف بن تاشفين ومحا ملوك الطوائف، الا دولة سرقسطة فان صاحبها اعتصم بالفرنجة فحموها حيناً، ولم ينل منها المرابطون الا في سنة ٥٠٣ هـ. (١١٠٩م) واستعادها الفنس الاول ملك أَرَغون (Aragon) سنة ٥١٢ هـ. (١١١٨ م) .

ومع سوء الحالة السياسية في عهد ملوك الطوائف فان الاداب والعلوم نهضت نهوضاً عظيماً لتنافس الامراء في تعزيزها، وتقريب اصحابها ، وظهرت الفلسفة وعلى رأسها ابن باجّة؛ واشتهر من هؤلاء الملوك جماعة من الادباء والشعراء، كالمظفر وابنه المتوكل ملكي بطليوس، والمعتمد بن عبّاد ملك اشبيلية .

دولة المرابطين (١٠٥٦ـ١١٤٦م و ٤٤٨ـ٥٤١ هـ)

الملثمون . لماذا سموا المرابطين . قيام دولتهم في المغرب . يوسف بن تاشفين . استنجاد الاندلس به . استيلاؤه على الاندلس . عهد علي بن يوسف على الاندلس .

ترجع هذه الدولة باصلها الى قبيلة لمتونة من برابرة صنهاجة في المغرب . وكان من سنتهم ان يضربوا لثاماً على وجوههم فلقبوا بالملثمين . وفي اصل هذا اللثام اقوال كثيرة اشهرها ان قوماً من اعداء الملثمين كانوا يرتقبون غفلتهم حتى اذا غابوا عن بيوتهم طرقوا الحي وانتهبوا النساء والاموال . فاشار بعض اشياخهم ان تبعث النساء في زي الرجال الى ناحية ، ويقعد الرجال في البيوت ملثمين في زي النساء . فلما اتاهم العدو ظنهم نساء فاراد سبيهم ، فثاروا عليه واشتفوا منه ، ثم لزموا اللثام تيمناً به .

وسموا المرابطين لان احدهم يحيي بن ابراهيم أسلم فجاء بفقيه اسمه عبدالله ابن يس ليعلم قبيلته القرآن واحكام الدين . ثم مات يحيي فتفرق الناس عن الفقيه ، فلم يفتّ في عضده بل جمع فئة منهم واعتزل بهم في جزيرة من السنغال ، وابتنى لهم رباطاً[1] فسموا المرابطين . فلما كثر عددهم ، وبلغوا الالف ، خطب عبدالله فيهم ، وحضهم على الجهاد في سبيل الحق ، وامرهم بارشاد عشائرهم . وابت عشائرهم ان تهتدي بهديهم ، فشنوا الغارة عليها ، وقتلوا منها خلقاً كثيراً ، حتى اسلمت . ثم تابعوا الغزوات في بلاد المغرب يدعون الناس الى دينهم وطاعتهم فاوقعوا الرعب في النفوس ، ونشروا الهول في تلك الانحاء .

وجعل عبدالله قيادة الجيش ليحيي بن عمر وكانت له زعامة في قبيلته لمتونة ، فابتدأت به دولة المرابطين سنة ٤٤٨ هـ . فلما مات خلفه اخوه ابو بكر ، ثم تنازل

(١) الرباط والرابطة : مكان ينفرد به المسلمون للعبادة ، ويتأهبون فيه للجهاد . هو بيت دين وحرب .

ابو بكر لابن عمه يوسف بن تاشفين سنة ٤٥٣ هـ. (١٠٦١ م) فدوخ يوسف المغرب وفتح فاس وطنجة وسبتة، وبنى مدينة مَرّاكُش[1] وجعلها داراً له فعظمت هيبته وضاع ذكره .

وكانت الاندلس في تلك الاثناء تعاني اشد الضيم فان الفنس السادس صاحب قشتالة غزاها غير مرة، واثخن في المسلمين، واخضع ملوك الطوائف، حتى بلغ جزيرة طريف، وادخل قوائم فرسه في البحر وقال: « هذا آخر بلاد الاندلس قد وطئته. » فلما بلغ الضعف بالمسلمين حدّه اجمعوا رأيهم على استنفار يوسف بن تاشفين، فكتب اليه المعتمد بن عبّاد صاحب اشبيلية يعلمه بحال الاندلس، وتغلب الفرنجة على اكثر ثغورها، ويسأله النصر والاعانة . وكتب اليه اهل الاندلس كافة يستنجدونه على العدو المغير. فجمع جيشا كثيفا، واجازه الزقاق الى الاندلس، واتخذ الجزيرة الخضراء مقرّاً له، فاقبل عليه ملوك الطوائف بامدادهم .

وكان الفنس يحاصر سَرَقُسْطة فلما علم بقدومه ارتد عنها للقائه، فنشبت بينهما معركة حامية الوطيس، فدارت الدائرة على الفنس، فانهزم جريحاً، وتبدد جيشه في ١٢ رجب ٤٧٩ هـ. (٢٣ تشرين الاول ١٠٨٦ م) فازداد يوسف بن تاشفين عظمة بهذا الانتصار وتلقب منذ اليوم بامير المسلمين، واتاه به تقليد الخليفة العباسي المقتدي بامر الله، ولقبه ناصر الدولة ثم رجع يوسف الى المغرب ظافراً منصوراً .

وما لبث المسيحيون بعد عودته ان استأنفوا نشاطهم، واعاد الفنس الكرة على الاندلس، واستولى على مدائنها، ورأى في بَلَنْسية من صاحبها السيد رُذْريق (Rodrigue)[2] معيناً . ففزع المعتمد بن عباد الى مراكش مستصرخاً امير المسلمين، وكتب اليه علماء

---

(١) مراكش : لفظة بربرية معناها امش مسرعاً ، سمي بها الموضع الذي بنيت فيه لانه كان مأوى للصوص ، فاذا مر به المسافرون قال بعضهم لبعض امش مسرعاً تخلصاً منه .

(٢) هو صاحب الاسطورة التي بنى عليها كورنه قصة السيد . وكان هذا الرجل قائد جيش من المرتزقة ، يقاتل به بين يدي من يعطيه مالاً فتارة يخدم به اليهوديين ، وتارة يخدم به الفنس حتى تمكن من الاستيلاء على بلنسية، واسر عاملها القاضي ابن جَحّاف، واحرقه حياً . وانشأ فيها امارة له . غير انه لم يهنأ بانتصاره بل مات قهراً بعد ان خذله المرابطون سنة ٤٩٣ هـ. (١٠٩٩ م) .

الاندلس يستنجدونه لانقاذها . فطمع في الاستيلاء عليها لما تحقق من ضعف اهلها ، فاغزاها قائده سير بن ابي بكر، فاستولى على قرطبة، واشبيلية ومُرْسية ودانية (Denia) سنة ٤٨٤ هـ. (١٠٩١ م) ودافع المعتمد بن عباد عن مملكته دفاعاً شريفاً، ثم اسر واقتيد الى أغمات قرب مراكش، ومات فيها .

وافتتح سير بَطَليوس سنة ٤٨٧ هـ. (١٠٩٤ م) وازال ملك بني الافطس . ثم بلنسية سنة ٤٩٥ هـ. (١١٠١م) بعد ان دافعت عنها شيمان ارملة رُذْريق نحو سنتين.

ومات يوسف بن تاشفين سنة ٥٠٠ هـ. (١١٠٦ م) بعد ان دانت له الاندلس، واصبحت ولاية للمرابطين . وانتقلت امارة المسلمين بعده الى ولده علي، فجعل مقره بمراكش، وترك في الاندلس اخاه تميماً نائباً عنه .

ولم تنعم الاندلس في دولة علي فان تعصبه الشديد للدين، واستمساكه بمذهب مالك، وكره غيره من المذاهب جعله آلة بيد الفقهاء ، فساد التعصب والارهاب ، وكثرت الوشايات، وخنقت حرية التفكير . وفي ايامه ظهر المهدي محمد بن تُومَرْت في جبال المصامدة بالمغرب فكان ظهوره وبالاً على دولة المرابطين ، وسببا لقيام دولة الموحدين .

دولة الموحدين (١١٢٩ـ١٢٦٨ م و ٥٢٤ـ٦٦٧ هـ)

محمد بن تومرت . طريقة التوحيد . المهدي . الدعوة الى جهاد المرابطين . موت المهدي . خليفته . دخوله الاندلس . عهد الازدهار في دولة الموحدين . انقراضها .

نشأ محمد بن تُومَرت في جبل السوس من المغرب الاقصى، وقومه بنو هرغة وهم بطن من بني مصمودة، وهي قبيلة شديدة البأس كثيرة العدد . وبدت عليه دلائل التقوى منذ حداثته، فكان يزور قبور الاولياء، ويتبرك بها . وطلب العلم في بلده فوجد ان المدارس في المغرب لا غناء فيها، فرحل الى الشرق، وجاء بغداد، وتلمذ لابي حامد الغزالي في المدرسة النظامية، فاخذ عنه طرفاً صالحاً من العلم واصول الدين .

فلما رجع الى المغرب شرع يدعو الناس الى التمسك باهداب الشرع، واقامة احكام السنة، ويبين لهم فساد الملوك والامراء وظلمهم ويدعوهم الى عصيانهم . واطلق على طريقته اسم التوحيد، فتبعه خلق من بني هرغة، فعرفوا بالموحدين . ثم اوقع في خلدهم ان النبي بشّر بالمهدي الذي يملأ الارض عدلاً، وقال انه يخرج من المغرب الاقصى . فقام اليه عشرة رجال، وقالوا له: « انت المهدي . » وبايعوه وساروا في ركابه يبثون له الدعوة في بلاد المصامدة حتى كثر اتباعه، ورسخت تعاليمه، فدعاهم الى جهاد المرابطين، واباح لهم دماءهم، فبايعوه على الموت؛ فجند منهم عشرة آلاف وقدم عليهم ابا محمد البشير احد صحابته العشرة، ودعا لهم؛ فراحوا يغزون في بلاد المغرب، ويوقعون بالمرابطين حتى بلغوا مراكش فحصروها ولكنها امتنعت عليهم، ومات المهدي سنة ٥٢٤ هـ . قبل ان يفتتحوها . وكان قد اوصى بعده لعبد المؤمن بن علي احب صحابته اليه فبايعوه بالخلافة، وتلقب بامير المؤمنين . وتابع عبد المؤمن جهاده حتى ازال دولة المرابطين واقام بها دولة الموحدين .

وجاءته الوفود من الاندلس تدعوه، فاجاز اليها جيشاً من الموحدين وامتلكها، وجعلها من ولاياته .

وبلغت دولة الموحدين اوج عزها في عهد ابي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن[1] الخليفة الثاني بعد المهدي، ثم في عهد ولده ابي يوسف يعقوب[2] الخليفة المنصور . ومع تمسك الموحدين باصول الدين، كانوا في الاندلس اعلق بالحضارة من المرابطين، فان ابا يعقوب استقدم الفلاسفة الى بلاطه كابن طُفَيل وابن رُشْد، وعني بالعمارة، ومن آثاره الباقية منارة الجامع الكبير في اشبيلية .

وظل الحكم للموحدين حتى اقتسم المغرب دول ثلاث، وهي المَرينية وعاصمتها فاس، والزيّانية وعاصمتها تِلِمْسان، والحفصية وعاصمتها تونس .

---

(١) خلافة ابي يعقوب من سنة ٥٥٨ ـ ٥٨٠ هـ . (١١٦٢ ـ ١١٨٤ م) . (٢) خلافته من سنة ٥٨٠ ـ ٥٩٥ هـ . (١١٨٤ ـ ١١٩٨ م) .

دولة بني الاحمر (١٢٣١ ـ ١٤٩١ م و ٦٢٩ ـ ٨٩٧ هـ)

حالة الاندلس بعد الموحدين . محمد بن نصر . اتفاقه مع الاسبانيين . سقوط قرطبة . لم يبق للمسلمين غير غرناطة . سبب بقائها طويلاً . ابو عبدالله . الفتن الداخلية . غزوات الاسبانيين . سقوط غرناطة . الاداب في عصرهم .

زايل الموحدون الاندلس بعد انقطاع دولتهم ، فبسط محمد بن هُود صاحب بطليوس سلطانه عليها فشمل به بَطَليوس ومُرْسية وقرطبة واشبيلية . ولكنه كان اضعف من ان يذود الاعداء عن مملكته ، ويحرس استقلالها ، ويرد المكايد عنها . فقد كان في أرْجونة (Arjona) من حصون قرطبة ، قبيلة عربية من بني الاحمر ينتهي نسبها الى الخزرج ، وعميدها محمد بن يوسف بن نصر . فاتفق هذا مع الاسبانيين ان يمدوه بجيش لقتال ابن هود على ان ينزل لهم عن بسائط الاندلس اذا استتب امره فيها . فاغتنم الفرنج الفرصة وزحفوا بجموعهم يستولون على المدائن والحصون حتى بلغوا قرطبة فحصروها ستة اشهر ، ثم سقطت في ايديهم سنة ٦٣٣ هـ . (١٢٣٥ م) بعد ان لبثت نحو عشرين سنة وخمس مائة عاصمة اسبانية المسلمة . وقتل ابن هود في ألمَرِيَة (Almería) ولم يبق للمسلمين غير اقطاعة الاندلس وعاصمتها غرناطة ، يتولاها ابن الاحمر امير المسلمين من قبل فرديناند الثالث ، وعاشت هذه الدولة الصغيرة ما ينيف على خمسين سنة ومائتين . ويعود ذلك على ان الملوك الاسبانيين كانوا يُشغلون عنها بمحاربة بعضهم لبعض ، وانها كانت تستنجد سلاطين المغرب في ضنكها فيجيزون اليها جيوشهم لدفع المسيحيين عن ارباضها .

فلما تأذن القدر بزوالها ، تولى امرها السلطان ابو الحسن علي بن الاحمر سنة ٨٨٨ هـ . (١٤٨٣ م) فنازعه الملك اخوه ابو عبدالله محمد الملقب بالزغل ، وبويع له بالقة ، فقامت الفتنة بين الاخوين حتى خضع الزغل لاخيه .

وكان لابي الحسن زوجتان احداهما ابنة عمه عائشة ، والثانية اسبانية مسيحية

اسمها ايزابلّة، فلما اسلمت سميت الثريا . وكان يؤثرها على عائشة، ويخصها بالاكرام والمودة، حتى انه قدم احد اولادها لولاية العهد . فاحتدمت الغيرة في صدر عائشة، وفرت من القصر ومعها اولادها ولجأت الى مدينة قادس (Guadix) فعضدها الشعب وبايع ولدها ابا عبدالله . واعصوصب الشر بين حزب ابي عبدالله وحزب والده ابي الحسن، ولاسيما الثغريون[1] وبنو السرّاج، فقد انتصر الاولون لابي الحسن، والاخرون لابي عبد الله، فكانوا يقتتلون في الشوارع والطرق حتى جعلوا الفوضى منتشرة في البلاد . وتزعم الرواية العربية ان ابا عبدالله نكب بني السراج[2] وافناهم، وينكر ذلك المستشرقان اوغست مولّر، وكليمان هيوار، ويضيفان هذه النكبة، ان صحت، الى ابي الحسن .

واستمرت الحروب بين الابن وابيه حتى رجحت كفة الولد، فاقام سريره في غرناطة، ثم خرج غازيا الاسبانيين فاسروه . فاجمع اهل غرناطة على ارجاع والده، وكان لاجئا الى مالقة، وقد ذهب بصره . فابى الملك وهو على هذه الحال، وقدم اخاه ابا عبدالله الزغل وكان شجاعاً، فحارب الاسبانيين، واثخن فيهم، فرأوا ان يرموه بابن اخيه ابي عبدالله، فاطلقوا سراحه، وامدوه بالعساكر، فثار يطلب الملك من عمه، فطالت بينهما الفتنة حتى استولى ابن الاخ على غرناطة، وكان العم غائباً عنها، فلما بلغه الخبر فت في عضده، وعطف الى وادي آش وهي مدينة من اعمال غرناطة، وتحصن بها .

واستفاد الاسبانيون من هذه الفتن الداخلية، فوالوا غزواتهم على المسلمين، ثم ازدادوا قوة بعد ان تزوج فرديناند الخامس ملك أرغون ايزابلة الكاثوليكية ملكة قشتالة سنة ١٤٦٩ م (٨٧٤ هـ .) فاتحدت مملكتان قويتان على دولة بني الاحمر، واصلوها حربا عوانا يقود جيوشهم فيها فرديناند، وتتولى ايزابلة خدمة الجرحى بنفسها . وحوصرت غرناطة سنة ٨٩٦ هـ . (١٤٩٠ م)، وسلمها ابو عبدالله في غرة

---

(١) الثغريون : نسبة الى الثغر اي سكانه . (٢) على اسطورة نكبة بني السراج بنى شاتوبريان قصة آخر بني سراج .

ربيع الاول سنة ٨٩٧ هـ. (١٤٩١ م) بمعاهدة اباحت للمسلمين واليهود حرية الدين .

واعطي ابوعبدالله ضيعة يقيم فيها، فخرج واهله من قصر الحمراء[1] حزيناً منخلع القلب، ومشى مطرقاً الى منفـاه، حتى اذا انعطفت به الطريق ، وكادت الحمراء تتوارى عنه ، ارسل اليها النظرة الاخيرة، وهطلت عيناه بالدموع . فقالت له امه عائشة : « ابكِ مثل النساء ملكاً لم تحافظ عليه مثل الرجال . » ولا يزال هـذا الموضع يسمى الى اليوم زفرة المغربي .

واقام ابو عبدالله في ضيعته الجديدة الى سنة ٨٩٨ هـ. (١٤٩٢ م) ثم عبر البحر الى المغرب، ونزل بفاس واتخذها مقراً حتى مات .

ولم يف ملوك اسبانية بعهد فرديناند لابن الاحمر يوم فتح غرناطة ، بل طفقوا يضطهـدون المسلمين ويرهقونهم حتى ازعجوهم عن سائر الاندلس ، وكان اخر عهدهم بها .

وامتاز عصر بني الاحمر بتعزيز الاداب ، فنبغ في دولتهم جمـلة من الشعراء والكتاب، وعرف جماعة من سلاطينهم بالشعر والنـثر كابي عبدالله محمد بن محمد المخلوع ثالث ملوكهم .

---

(١) قصر الحمراء من عجائب العمارة العربية . شرع في بنائه ابو يعقوب يوسف الاول خليفة الموحدين، واتمه من جاء بعده من الامراء والملوك ، ويعزى بناء الحصن فيه الى محمد بن يوسف اول ملوك بني الاحمر .

ميزة العصر

التعصب . الاستبداد . أخرية . التساهل .

يكاد العصر الاندلسي ، على اختلاف احواله ووجوهه، يحتوي ميزة واحدة في السياسة والاجتماع ، يتلون بها من اربع نواحٍ متناقضة : الا وهي التعصب والاستبداد، والتساهل والحرية . فقد كان لوجود المسلمين في بقعة تتاخمها البلاد النصرانية ويناصبهم اهلها العداء ، دافع قوي لاذكاء الشعور الديني في نفوسهم، يزيد في تأريث عصبيته حمية الفقهاء ، وما لهم من نفاذ وسلطان . فلم يكن لسوى المسلمين ان يتولوا الخطط العالية في الاندلس ، والا عرّضوا انفسهم لنقمة الفقهاء والعامة، واصابهم ما اصاب اليهود في غرناطة لما استوزر صاحبهم يوسف بن نغزلة .

وحرص الفقهاء على سلطانهم الديني ، جعلهم يثيرون العامة ، ويستعدون الخلفاء والملوك على ذوي التفكير اذا تعاطوا الفلسفة ، ونظروا في القرآن، ومحصوا احكام الدين ، وخرجوا بها عن الشرع والسنة . فاصبح الشعب بادي السخط على الفلاسفة يرميهم بالزندقة ، ويزورُ هم متنكراً، ويتمنى اهلاكهم . واصبح ولاة الامر اذا ارادوا التودد الى الفقهاء والعامة ، تقدموا باحراق الكتب المتهمة ، وباضطهاد كل مفكر غمزت عقيدته . فراجت سوق الدسائس والوشايات، وتفاقمت السعايات والمكايد، فساد الاستبداد ولقيت حرية التفكير شراً وعنتاً ، فنكب من اجلها ابن رشد واصحابه، وابعد ابن هانئ عن الاندلس، ووئدت البدع فلم يكن لها حظ في الغرب كما كان لها في الشرق، وامتدت ايدي الوشاة الى رجال الدولة ، فنالهم من نقمة الملوك ما نال سواهم، فنكبت طائفة من الوزراء والقضاة كابن زيدون وابن الخطيب وابن زَمرك، وسواهم .

على ان هذا لا ينفي مرور فترات قصيرة او طويلة يقوم فيها بالامر ملوك حزمة

عادلون، يؤيدون حرية الفكر دون ان يغضبوا الفقهاء والعامة فتخف الوشايات والدسائس، وتلتعش الفلسفة شأنها في زمن الموحدين .

وكانت الاندلس دار خصب وغنى، وموطن حضارة وهو وجمال . فانصرف اهلها الى متع الحياة يتذوقونها، فاسرفوا في طلب الملذات، وانغمسوا في حمأة الدعارة، وتهتك شاعرهم وكاتبهم، فنطقت شفتاه بافحش الاقوال، وتمادى في ذكر مجالس اللهو والخمر والتعهر، غير متحوب ولا وجل . ولم يجد من الملوك والفقهاء وازعاً يزعه لانهم لم يروا في عبث الناس ومجونهم، ما يخشى منه على الدين ما دامت له الحرمة في النفوس، ولهم السلطان العزيز، فارخوا عنان التساهل، واباحوا حرية القول والعمل، فساءت الاخلاق، وابرزت الخلاعة معصميها، فكان ضرر هذا التسامح ابلغ من ضرر التعصب والاستبداد .